الفصل الثاني

التربية وآجالها

رأيت أن أُقسِّم التربية في هذا الكتاب إلى ثلاثة آجال أصلية، وأجلٌ تتميمي: وهو الطور الذي تظهر فيه مفاعيل التربية في الأجيال الثلاثة السابقة، ويبدو فيه أثرها. أما الآجال الثلاثة الأصلية فهي:

أولا التربية الوالدية: وهو الأجل الذي تكفل فيه الأم ولدها، وتكتنفه بعنايتها منذ ولادته إلى نعومة أظفاره؛ أي إلى السنة السابعة، أو الثامنة من عمره.

وثانيا التربية الأولية: وهو الأجل الذي ينقضي علي الولد منذ خروجه من بين ذراعي أمه، أو مرضعته؛ للقيام تحت عناية أبيه، أو بين يدي رجال الكتب الصغيرة التمهيدية، وأصحاب المدارس الابتدائية؛ أي منذ السنة السابعة، أو الثامنة إلى العاشرة، أو الثانية عشرة.

وثالثا التربية الثانوية: وهو الأجل الذي يبدأ الغلام فيه بتلقي العلوم والمعارف في المدارس الكبرى بين أيدي الأساتذة والمؤدبين، وذلك منذ السنة العاشرة، أو الثانية عشرة إلى السنة الثامنة عشرة، أو العشرين

أما الأجل التتميمي الذي تجتني فيه ثمار التربيات الأصلية الثلاث، وتظهر فيه مفاعيلها، فإنه يبدأ منذ دخول الإنسان إلى ساحة الهيئة الاجتماعية، وولوجه مضمار الأعمال والتعامل مع المجتمع الإنساني، ولا ينتهي إلا بإنتهاء هذه الحياة. وسيأتي الكلام علي هذه الآجال الأربعة بالتفصيل، وكل آتٍ

قريب.

والذي يتضح مما تقدم من الكلام الإجمالى علي آجال التربية أن عمل التربية لا يقف عند حد، بل هو يبدأ مع الإنسان ولا ينتهي إلا بإنتهاء حياته. والغاية التي يقصد إليها من التربية إنما هي الكمال في الصفات؛ ليكون ذلك ذريعة إلى السعادة والهناء. ولما كان الكمال معدودًا من قبيل المستحيل، كان من الواجب أن لا يظن الإنسان أنه بلغ من التربية أقصي غايتها، وأبعد أشواطها. وكما أن الرجل يولد طفلاً ثم ينمو شيئًا فشيئا جريًا علي القواعد الطبيعية، فكذلك التربية يجب أن تكون تدريجية تابعة لسير الطبيعة المادي.

ولقد تقدم لنا القول أن التربية تبدأ مع الإنسان. ولتأخذن الآن بتفصيل هذا القول والكلام علي آجال التربية بأجلى بيان وأوضح تبيان.

خذ الولد طفلاً رضيعًا، وأنظر إلى حالته تر للتربية الأولية آثارًا بادية في كل حركة من حركاته وحركات مرضعته، فإن الاجتهاد في إسكاته وتسكينه كلما استهل بالبكاء، وذلك الصبر الجميل والعناية الباهرة في مقاومة أمياله ورغائبه، وتلك الطرائق التي تتبع بالحلم والحنو لردعه عن كل ما يمر بخاطره الصغير الضعيف، إنما هي كلها أمور توصف بأنها بدء التربية.

ثم انظر إليه يافعًا قد أتم الدراسة، وختم العلوم وهو يسير مع أبيه جنبًا إلى جنب، وأبوه يدله علي طرق التجارة وذرائع الاكتساب، ترَ التربية لا تزال متبعة طريقها، سائرة في سبيلها مع هذا الذي تراه اليوم وقد طر شارباه وكان بالأمس رضيعًا بين ذراعي أمه تغني له لينام، أو تزجره ليسكت.

إذن فكل ما يقال ويصنع لدى الولد من الكلمة الأولي التي تهمسها أمه في أذنه بين ابتسامة وقبله وهو طفل رضيع إلى آخر درس يلقيه عليه الأستاذ

وهو يافع، يستعد لإطراح ثوب التلمذة والدخول في غمار هذه الدنيا، وبالإجمال كل ما يجري تحت سقف البيت، أو بين جدران المدرسة، وكل ما يأتيه الأب والأم، ويصنعه المعلم والمربي، وكل ماُ يؤمر به ويُنهي عنه يجب أن يرمي به إلى غاية واحدة ويقصد به إلى قصد واحد وهو ترقية هذا الولد في سلم التربية لإبلاغه درجة الكمال.

ومن البداهة أن تعاليم التربية علي أهميتها، وخطارتها يجب أن تكون مطابقة أتم المطابقة لحالة الولد، وقواه، وذكائه، وفهمه، بل ولأميالة الغريزية القلبية أيضا. وكما أن الإنسان لا يبلغ مبلغ الرجولية إلا بعد أن يقطع الأطوار الطبيعية التي لا يستثني منها أحد؛ وذلك لأن الطبيعة تربك الإنسان في بادئ أمره طفلا ضعيفًا لا قدرة له علي شيء، ولا تمييز عنده، ثم تأخذ في إنمائه بصبر عجيب، مجتازة به أطوارًا متقلبة معه في شئون فيترعرع ويدب، ثم يقوى فيشب. كذلك التربية يجب أن تخرج من طور إلى طور، وتترقى من شأنٍ متّبعة في ذلك مجرى الطبيعة نفسها، منطبقة علي الأجل الذي يكون فيه الولد، أو الغلام الذي تعمل فيه عملها، وتهمى عليه منافعها وحسناتها؛ ولذلك قلنا في صدر هذا الفصل أن للتربية آجالًا، وأن آجالها الأصلية ثلاثة كما مر.

علي أنه وإن كانت التربية تشبه في جل وجوهها –إن لم نقل في كلها– بالنمو المادي الطبيعي، وتُقسّم مثله إلى آجال وأطوار إلا أنها تختلف عنه من وجه جوهري يجب إحلاله في محل الاعتبار وإمعان النظر فيه. وهو أن عملها لا يسير دائما سيرًا منتظمًا متتابعًا دون انقطاع، كما وشأن الطبيعة في إنماء الأجسام، فإن هذه لا يحول دونها حائل، ولا تقوم في سبيلها عقبة، وأمرها كله موقوف علي مرور الأيام وتعاقب السنين، فلا يُمنع الطفل من أن يصير غلامًا، والغلام أن يصبح يافعًا شابًا، والشاب كهلاً، والكهل شيخًا مانع من الموانع إلا

أن يسترد الله وديعته في خلال هذه الآجال، وذلك خارج عن البحث الذي نحن فيه. بخلاف التربية فإن النفوس –لسوء الحظ– بعيدة عن أن تنمو نمو الأجساد. وإذا نظرت إلى الولد تراه ينمو ويكبر في قواه وقامته دون انقطاع إلى أن يبلغ أشده، ويصل إلى الحد الذي يحسب معه الإنسان رجلاً تامًا في خلقه. أما التربية: فكم من العقبات يقوم في سبيلها، وكم من الموانع يعتور سيرها ويوقف تقدمها.

وانظر إلى ما حولك إذا التمست شاهدًا علي صحة هذا القول، فقلما إذا نظرت لا تقع عيناك علي رجال قضى عليهم سوء التربية، أو فسادها، يكبروا، ويشيخوا، ويقضوا أيام الحياة كلها في طفولية لا آخر لها، ولا خروج منها والعياذ بالله.

ومع ذلك فمن العدل أن نتْبع هذا القول بقول آخر لا ينقص عنه أهمية، ولا يقل عنه صحة: وهو أنه إذا كان نمو الإنسان المادي وتقدم قواه الجسدية يقفان عادة عند بلوغه سن الحادية والعشرين، فإن التربية لا حد لها تقف عنده، بل هي تستمر في سيرها إلى آخر رمق إذا كانت للإنسان إرادة حسنة، وقوة، وشجاعة للاستمرار علي السير في طريق الكمال.

وذلك أنه بعد التربية الثانوية التي يخرج الإنسان منها في غالب الأحيان غير تام التربية، تعرض لنا التربية النهائية التي لا حد لها، والتي تقوِّم ما أعوج، وتصلح ما فسد واختل من عوامل التربية السابقة. ونريد بها التربية التي يستفيدها الإنسان بعد خروجه من المدرسة العملية ودخوله مدرسة العالم الكبرى العملية، حيث الرجال، والأشياء، والحوادث، ومعاكسات الظروف، ومصائب الأيام، وما سوي ذلك مما يلقاه من عوادي الدهر، كلها دروس تتم عمله، وتصقل تربيته، وتكمل أخلاقه؛ فلذلك قلنا أن هذا الأجل إنما هو أجل

التربية التتميمية، وأنه المدرسة الكبرى الفعلية،

وأنني أعتبر هذه التربية الأخيرة تربية واجبة ضرورية لكل إنسان، ولكنني أراها غير ذات منفعة وجدوى إلا إذا تقدمتها التربيات الثلاث الأولي التي سبق الكلام عليها. وإلا فإنها تبقي ناقصة مهما عظمت، وضعيفة مهما قويت.

وغني عن البيان أنه لا بد لكل إنسان من دخوله مدرسة العالم الكبرى، ولكن العبرة ليست في دخول المدرسة، والفائدة ليست في سماع كلمات الدرس، وإنما الحكمة كلها في الاستفادة والانتفاع، العاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر.